الفرار إلى الأمل

د. عوض سليم خليفة
أستاذ علم الاجتماع/ جامعة طرابلس

الكتاب الذي نتناوله في هذا العدد من المجلة من تأليف الأستاذ الأديب محمد التركي التاجوري، وهو كاتب معروف في الساحة الأدبية في ليبيا.

والكتاب من الحجم الصغير يبلغ عدد صفحاته 160 صفحة، ويشتمل على سبعة وعشرين قصة قصيرة اختار لها الكاتب عنوان الفرار إلى الأمل وهى أحدى المجموعة القصصية. من منشورات اللجنة الشعبية العامة للثقافة والإعلام (سابقاً) عام 2008م.

تناول المؤلف مجموعته القصصية بأسلوب أدبي رفيع المستوى وهو من السهل الممتنع الذي يصعب محاكاته ومجاراته.

وذكر في مقدمة الكتاب أن هذه القصص تحمل الطابع المحلى ساقها من الواقع الذي كان يدور بين الناس.

وأرى أن تلك القصص في مجملها تعتبر جزءاً مهماً من التاريخ الاجتماعي للمجتمع الليبي.

فالكتاب رغم صغر حجمه، ومحدودية عدد صفحاته إلا أنه يوثق بأسلوب شيق، وفي غاية الدقة لطبيعة ونمط الحياة الاجتماعية بكل صورها في الأرياف والقرى والمدن في مرحلة تاريخية سابقة، فكل قصة تتناول جانباً حيوياً معيناً من جوانب الحياة الاجتماعية، وتشكل في مجموعها لوحة فنية غاية في الدقة والتصوير، ولا أبالغ إن قلت أن هذه المجموعة القصصية لو كان كاتبها أحد المستشرقين الأجانب لطبقت شهرته الآفاق ولثقفتها دور النشر المختلفة وتسابقت على نشرها.

ونتناول في هذه اللمحة السريعة أحدى هذه القصص بشيء من الإيجاز، رغم أن ذلك ليس بالسهل، وكما ذكرت آنفاً أن الأسلوب الفني الذي صيغت به هذه المجموعة القصصية هو من السهل الممتنع الذي يصعب محاكاته والإتيان بمثله. وقد اخترت للعرض

قصة الفرار إلى الأمل التي اختارها الكاتب لتكون عنوان الكتاب، وتدور أحداث القصة حول شخصية عمر الذي ألم به مرض عضال جعل جسمه مليئاً بالقروح، وقد أعياه البحث عن علاج يشفيه من مرضه هذا وقد سئم نفسه وضاق به الحال والمحيطين به من الأهل والأقارب.فقرر الابتعاد عن المكان والرحيل إلى الصحراء التي ليست بعيدة عن مكان سكناه، تلك الصحراء التي كان يختلف إليها في مواسم الحرث والحصاد، وربما أثناء الصيد، فحزم أمتعته البسيطة مع بندقية صيد قديمة، وغادر أهله وذويه، وظل هائماً في تلك الصحراء بعيداً عن أعين الناس، يقتات بين نباتاتها، وما يصطاده من حيوانات برية. وفي ذات يوم من الأيام أصطاد أرنباً، فأعدها للطبخ في إناء طبخه وأشعل تحتها ناراً، فغاب عنها فترة من الوقت متجولاً هنا وهناك كعادته.

وفي تلك الأثناء تضوعت في الجو رائحة الطبخ واللحم، وكان بقرب ذلك الإناء الذي كان يغلي هائشة عظيمة خرجت من جحرها حيث شمت رائحة الطبخ ودلفت في حينها إلى ذلك الإناء، وصارت تغلي مع ذلك اللحم حتى تحللت معه.

وبعد عودته من جولته، ولشدة جوعه أقبل على ذلك الإناء وأخذ يلتهم ما فيه بكل شراهة، وقد لاحظ أثناء ذلك وجود سلسلة عظام الهائشة، ولكنه لم يكترث بما رآه، وألتهم كل اللحم، وبعد هذه الوجبة الدسمة التي اختلط فيها لحم الأرنب ولحم تلك الهائشة إفترش (شكارة الخيش) التي كان يستعملها لحمل أمتعته، ونام نوماً عميقاً أحس معه بالراحة من تلك الآلام التي كان يعاني منها، وحين صحا من نومه وجد نفسه متعرقاً. وأن الأرض المحيطة به مبللة من العرق الذي كان يتصبب من جسمه، وأحس بالعافية والشفاء، وفي اليوم التالي رأي تلك القروح التي كانت بجسمه تتلاشى، وفي اليوم الثالث رمي جسمه ثوباً من القرحة، وعاد إنساناً سوياً معافى، وبعد عدة أيام عاوده الشوق والحنين للأهل والأحباب والديار، فلملم نفسه وتسلسل لقريته دون أن يشعر به أحد، ودون أن يثير ضجة، ففوجئ به أهله وذووه الذين كانوا مشدوهين ولم يصدقوا ما رأوه في البداية، وما هي إلا لحظات حتى أخذت الزغاريد تعلو المكان، والذبائح تذبح، والمآدب تقام، وأصوات الحمد والشكر لله سبحانه وتعالي القادر على كل شيء.

كانت تلك قصة من القصص الرائعة، التي تجعل القارئ ما أن ينتهي من قراءة واحدة منها حتى يجد نفسه متشوقاً إلى قراءة قصة أخرى وربما أعاد قراءة بعضها أكثر من مرة لعذوبة الأسلوب، وما تحمله من رموز ودلالات نفسية واجتماعية وروحية.

وقبل أن أنهي هذا العرض أشير إلى أحدى الصور الرائعة التي تناولها الكتاب في قصة الرغاطة (التعاون) تلك الظاهرة الاجتماعية القديمة والمتأصلة في كيان المجتمع الليبي، والتي تستند إلى القيم العربية النبيلة، وتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، حيث كانت جميع الأعمال التي تتطلب جهداً جماعياً تتم عن طريق الرغاطة التي يألفها ويمارسها أفراد المجتمع منذ أزمنة موغلة في القدم، قبل دعوات المفكرين الاجتماعيين الذين يتباهون بمؤسسات المجتمع المدني في البلدان الغربية، وقبل ظهور تفسيرات وتحليلات أميل دوركايم عالم الاجتماع الفرنسي لمفهوم التضامن الاجتماعي بنوعيه الآلي والعضوي والذي سبقه منها العلامة عبدالرحمن ابن خلدون.

وفي اعتقادي وتقديري أن هذه المجموعة القصصية والثرية بالثقافة الشعبية والموروث الشعبي تعتبر مادة علمية غزيرة تخدم الباحثين وطلاب المعرفة في مجالات علوم الاجتماع والإناسة والاقتصاد والنفس وغيرها، يمكن توظيفها في أبحاثهم ودراساتهم لإنجاز رسائلهم وأطروحاتهم العلمية، خاصة في ما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي لليبيا، فما أحوجنا لهذا النوع من الدراسات التي يستخدم منهج تحليل المضمون الذي يعد أحد المناهج الرئيسة في الدراسات الاجتماعية.

وفي نهاية هذا العرض لدي ملاحظة بسيطة تتعلق بوجود بعض المفردات العامية، وربما هي من القول الفصيح إلا أنها بدأت تتلاشى في الاستخدام مع مرور الزمن، وقد يصعب فهمها ومعرفة معناها بدقة لدي الجيل الجديد الذي لم يألف سماعها أو بسبب تراجع القراءة والاطلاع خاصة للأعمال الأدبية، قد يرجع ذلك إلى انتشار وسائط ثقافية أخرى مثل الهاتف المحمول والقنوات الفضائية والإنترنت التي أخذت حيزاً واسعاً من اهتمامات الشباب وربما حتى الكبار.

يا حبذا لو قام المؤلف بتوضيح معنى بعض الكلمات في هوامش الصفحات التي وردت بها تلك المفردات، أو وضعها في نهاية الكتاب مع شرح كلا منها حتى تعم الفائدة لجميع القراء.

وأخيراً أقول أن الكتاب جدير بالقراءة، وجدير بأن يتصدر مكتبة كل مثقف وباحث، وأحيي الكاتب على جهده وإبداعه الذي يستحق كل تقدير وثناء.